بالكتابة القصصية إلى شكلها الميلودرامي، حيث يجتمع الانسان وخطيئته الاصلية وبحثه عن الغفران، «انسان ما» تختاره الارادة الالهية وتنزل عليه عقابها، كي تسبر مدى صبره وايمانه. وفي هذا العقاب، وبسببه، يتعرّف الانسان على حدوده، ويتعرّف على الصورة التي هو ظل لها، ويعرف ان خلاص الانسان وكماله يستلزمان الخضوع لمشيئة «المرجع الخارجي». لهذا، تغيب السببية الاجتماعية، بالمعنى الواضح للكلمة، من الشكل الميلودرامي، لأن هذا الشكل يخضع إلى سببية مجرّدة تفرض تراكم الاسى كمدخل ضروري إلى الخلاص. لانودّ هنا ان نشرح معنى الميلودراما، بل نودّ الإشارة إليها اختزالاً كي نرى صورتها في بعض قصص سميرة عزام.

إذا اقتربنا من قصص «كاتبتنا»، وبحثنا عن الأسى والخلاص والانسان المجرّد، نجد ما نبحث عنه قائماً في عدة قصص، نختار منها: «ماما، الفيضان، هواجس، من بعيد، مات ابوه»؛ فالقصة الاولى تحكي عن زوجين موسرين، يمنعهما سبب وراثي عن انجاب الاطفال، وبسبب حب الرجل لزوجته الحالمة بالأطفال فإنه يطلّقها ويذهب في بلاد الغربة، حتى يصله خبر إنجابها فيرسل لها من منفاه الطوعي رسالة مباركة. تمثّل هذه القصة الشكل الميلودرامي في مستواه الأمثل: الرجل واسع الثراء، لكن عطبه الوراثي (الخطيئة الاصلية) يمنعه عن الإنجاب، والعطب هو بداية المأساة، اما تراكم المأساة فيتجلّى في حب الرجل لزوجته، وحب زوجته للأطفال، ثم تمتد المأساة فيطلّق الرجل زوجته التي يحبها (الوازع الاخلاقي) ويسافر إلى بلاد الغربة. تتراكم المأساة حتى تفضي في النهاية إلى الخلاص المحكوم بإرادة عليا: تنجب المرأة بعد زواجها الجديد، ويبدو الرجل سعيداً في منفاه، وهو سعيد لسعادة زوجته السابقة. تظهر المأساة اللامعقولة شرطاً ضرورياً للعبور إلى السعادة والرضا، او لنقل إن هذا العذاب كان الثمن الضروري الذي يمسح به الانسان خطيئته الاصلية.

تقوم الميلودراما إذاً على عناصر ثلاثة: المأساة ــ البداية ذات السبب الغامض الذي تمليه قوة خارجية؛ تراكم المأساة وتطوّرها وتطوّر الانسان فيها؛ لحظة الخلاص الاخيرة كتتويج لذروة المأساة وإظهار العبرة منها. نعثر في قصة: «مات ابوه» على العناصر نفسها المشار إليها؛ فهي تبدأ بالكلمات التالية: «نظر الى جدته بعينين قلقتين وهي تلوك كلماتها مولولة منتحبة: مات ابوك يا ممدوح... مات ابوك» ثم تتنامى المأساة: «لم يدرك بالضبط ما تعنيه جدته العجوز ــ وجلس في العراء على حجر خشن ــ واستدار ناظراً إلى فراش ابيه، وذات عشية «ذهبت امه» إلى بيت الزوج الجديد فتعلّق بها باكياً. وهكذا تتضاعف المواقف المأساوية حتى تعود الأم يوماً إلى ابنها بعد ان فقدت زوجها وانجبت منه ولداً: «وعادت امه ذات يوم، لتقول له: اخوك... ابن الرجل الآخر... الذي مات، واطرق ممدوح قليلاً ثم مشى إلى الباب وفتحه... ودعا الصغير مبتسماً»[٤]. نرى، من جديد، ان بداية القصة هي الموت ثم يعقبه اليتم والرحيل والشقاء إلى ان تعود الأم إلى طفلها، فكأن تحقّق الأمومة، في قيمته الاخلاقية، لايستوي إلا بعد عثار معينّ يشرح معنى العلاقة بين الأم وولدها.

تنبغي الإشارة إلى ان الشكل الميلودرامي لم يكن طاغياً إلا في قصص سميرة عزام